أركان التوبة النصوح وشروطها

● الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

تحدثنا في الجمعة الماضية عن التوبة، ووجوب التوبة على جميع الناس: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

نعم التوبة وضرورة المبادرة بالتوبة، فإن الأعمار تنقضي سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وأسبوعاً بعد أسبوع، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، ولحظة بعد لحظة، فلا بد من المبادرة بالتوبة حتى لا يفجأك المرض، أو يفجأك الموت وأنت لم تعد العدة، ولم تهيىء الزاد.

فالحازم الكيس من تأهب للموت قبل نزوله كما في الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»(١)، وأول ما ينبغي أن يعمل به العبد لما بعد الموت: أن يتوب إلى الله توبة نصوحاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وابن ماجة، وأحمد، والحاكم، وقال: صحيح، ووافقه الذهبي عن شداد بن أوس، ورمز له السيوطي بالصحة في (الجامع الصغير)، وتتمة الحديث: «والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٨٦٩، الحديث ٢٠٩٠) و(شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط: ١٤/٣٠٨، الحديث ٤١١٦)، ومعنى «دان نفسه» أي حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسب في يوم القيامة وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتجهزوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يومئذٍ على من حاسب نفسه في الدنيا.

تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

ما التوبة النصوح؟:

النصوح: الخالصة من الشوائب، التي لا غش فيها ولا دخل.

فما حقيقة هذه التوبة؟ وما شروطها؟ وما علائمها؟.

حقيقة هذه التوبة تبدأ بالندم، ثم بالعزم، وتنتهي بالإقلاع عن المعصية.

أول أركان التوبة وأعظمها:

الندم، والندم عمل من أعمال القلوب، ليس من أعمال اللسان ولا من أعمال الجوارح، بعض الناس يحسب التوبة أن يقول بلسانه: تبت إلى الله، وندمت على معصية الله، وعزمت على طاعة الله، وألا أعود إلى المعاصي أبداً، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام، يقول هذا بلسانه، وربما جاء إلى بعض الشيوخ فقال له: يا سيدنا الشيخ توبني، يريد بتتويبه أن يقول هذا الكلام.

هذا الكلام لا يغني، لا يكفي أن تقول: نويت التوبة، وقلبك مصر على المعصية، بل لا يكفي أن تقول: استغفر الله، وأنت عازم على المعصية، وقد قالوا: الاستغفار من غير إقلاع هو توبة الكذابين.

توبة الكذابين على أطراف ألسنتهم، وتوبة الصادقين من أعماق قلوبهم، وإنما تبدأ التوبة بذلك الندم، بهذه الحسرة، وبهذا الحزن والأسى، بهذه المشاعر التي تكوي الإنسان كياً.

هذا الاحتراق الداخلي هو أول التوبة، أن يشعر بالندم على ما فات، على ما فرط منه في جنب الله، على تضييعه لفرائض الله، على أكله لحقوق الناس، على... على... هذا هو أول التوبة، وقد جاء في الحديث: «الندم توبة»[١]

---

(١) رواه أحمد، وابن ماجة، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٨٢٢، الحديث ١٩٣٢).

أي: هو الركن الأعظم، كما ورد: «الحج عرفة»[1] أي: الركن الأعظم في الحج هو الوقوف بعرفة، وإن كان هناك أركان أخرى، كذلك للتوبة أركان أخرى، ولكن أولها وأعظمها: الندم، أن يستشعر الإنسان مرارة المعصية، ويستحضر ذلك في قلبه ونصب عينيه.

وهذا الندم يأتي من صحوة، من يقظة يجدها في قلبه، وهذا فضل من الله يهبه لمن يشاء من عباده، يأتي بأدنى ملابسة، كما قيل: من لمحة تقع الصلحة، من كلمة يسمعها، من موعظة مؤثرة، من رية يتلوها أو يستمع إليها، من موقف يشاهده، من رؤيا يراها، من موت لعزيز عليه، من حادثة تقع له أو كارثة تنزل به أو بأحد يعز عليه، فيحدث من وراء ذلك: الندم فيتوب إلى الله.

قالوا: إن أحد كبار الوزراء في العصر العباسي مر بموكبه العظيم في طريق، فكان الناس يسألون: من صاحب هذا الموكب؟ من هذا؟ من هذا؟ فكانت امرأة في الطريق قالت لهم: أقصروا، من هذا؟ من هذا؟ هذا رجل سقط من عين الله، فابتلاه الله تعالى بما ترون، تظنون أن هذا علامة مجد وعظمة، هذا رجل سقط من عين الله، فبلغ ذلك الوزير قولة هذه المرأة، فرجع بعد ذلك إلي بيته، واستغنى عن الوزارة، وغير من حياته كلها بكلمة.

كلمة يمكن أن تغير الحياة، منظر، لو رأيت منظر جنازة أمامك، لو رأيت أحد أصدقائك أو أقربائك وقد كان ملء السمع والبصر، فإذا هو جثة أمامك لا يحرك ساكناً، ولا يستطيع شيئاً، لو رأيت القبور وذهبت إلى وادي الموتى، ورأيت هناك الأمراء والكبراء والوزراء وأصحاب الملايين، أين وزاراتهم؟ وأين رئاساتهم؟ وأين إماراتهم؟ وأين ملايينهم؟.

---

(١) رواه أحمد، وأصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم والدارقطني، . والبيهقي، كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلمي، قال: شهدت رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفات وأتاه ناس من أهل نجد، فقالوا: يا رسول الله كيف الحج؟ فقال: «الحج عرفة، من جاء قبل صلاة الفجر من ليلة جمع، فقد تم به حجه» (المقاصد الحسنة: الحديث ٣٩٤).

منظر واحد يراه الإنسان بقلبه لا بعينه، يمكن أن يغير من حياته، كلمة يسمعها وقد فتح لها قلبه، فإذا هي تغير مجرى حياته كلها فينتقل من حال إلى حال.

رؤيا يراها بعض الناس، كثير من الصالحين تاب بسبب رأيا رآها في نومه، فغير من سلوكه، وغيرت من حياته، كما حكوا عن مالك بن دينار.

وعلى كل حال، إن الإنسان عليه أن يعين نفسه، يعين نفسه على حدوث هذا الندم، كيف يعين نفسه؟ يتذكر حق الله تعالى عليه، وفضل الله تعالى عليه، وهو فضل عظيم لا يحصيه عدّ، ولا يحيط به حدّ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨] . يتذكر آلاء الله التي تغمره من قرنه إلى قدمه، منذ كانَ في المهد صبياً، بل منذ كان جنيناً في بطن أمه، وإحسان الله إليه، وفضله عليه، لم يفارقه لحظة من الزمن.

يتذكر هذا، ويتذكر بجوار ذلك، ما يصدر منه من معصية، خير الله تعالى إليه نازل، وشره إلى الله صاعد! يتحبب تعالى إليه بنعمه وهو الغني عنه، ويتبغض هو إلى الله سبحانه بمعصيته، وهو أفقر شيء إليه!.

يتذكر المصعية، وشؤم المعصية، وآثار المعصية في الدنيا والآخرة، فهي مجلبة الخسران، هي البضاعة الكاسدة التي ليس من ورائها إلاّ البوار، والخسار، في الدنيا قبل الآخرة.

ذكر الإمام ابن القيم رضي الله عنه للمعصية أكثر من مائة ضرر من الأضرار والآثار في الأولى قبل الآخرة، في كتابه: (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)[١].

---

(١) ويسمى أيضاً: الداء والدواء، وقد ألفه ابن القيم رداً على سؤال مفاده: «ما تقول السادة العلماء، أئمة الدين، رضي الله عنهم أجمعين، في رجل ابتلى ببلية، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق، فما تزاد إلاّ توقداً وشدة، فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟»، وراح ابن القيم =

كل ما ترى من شرور في نفسك أو أهلك أو مالك أو ولدك أو أصدقائك أو المجتمع من حولك، كل ما أصاب الناس من فساد وانحلال، سببه المعصية.

إن الله لا ينزل البلاء على الناس انتقاماً منهم، بل إنما ينزل عليهم العقوبة تأديباً لهم بما فعلوا: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

انظروا إلى التعبير القرآني:

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١] لا يعاقبهم بكل شيء عملوه ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

تذكر شؤم المعصية... شؤم المعصية في الدنيا وفي الآخرة، إذا صبرت على آثارها في الدنيا، فانظر إلى آثارها في الآخرة، هل تتحمل عذاب القبر؟ هل تتحمل كما في الموقف يوم القيامة؟ هل تتحمل ما في جهنم والعياذ بالله؟.

تذكر الموت وسكرته، وتذكر القبر وضمته، وتذكر الحساب ودقته، وتذكر الموقف وزحمته، وتذكر الرب وغضبته، وتذكر الجنة وما فيها من نعيم، وتذكر النار وما فيها من ألوان العذاب والخزي، تذكر هذا كله.

تذكر إنك لا تستطيع أن تحتمل حر الشمس في يوم صائف، تذكر أنك لا تستطيع أن تحتمل لدغة مصباح تضع أصبعك عليه، فكيف تقوى على جحيم وقودها الناس والحجارة؟ تذكر هذا كله ليعينك على أن تندم.

الإنسان العاقل إذا عرف شيئاً ما يضره، ويهدده بالخطر، فلار بد من أن يقلع عنه، ألا ترون الإنسان الذي عاش عمره مدخناً، المبتلى بهذه الآفة التي تأمل المال والصحة والأعصاب، إذا قال له الطبيب وقد أصيب بقلبه: إما أن تقلع عن التدخين، وإما أصبحت حياتك في خطر، ماذا يفعل الإنسان؟ إنه لا

= يشخص الداء بمهارة وحذق، ويصف الدواء الناجح، مستلهماً نصوص الكتاب والسنة.

يخاطر بحياته إذا كان عنده ذرة من عقل، إنه يقلع عن التدخين الذي عاش وهو إلفه، وعادته التي استمسك بها عشرات من السنين في عمره، وكم رأينا من هؤلاء ممن عاش أربعين سنة أو أكثر أو أقل، أقلع عن التدخين؛ لأن الطبيب قال له: التدخين مهدد لصحتك، وخطر على حياتك.

فإذا قال طبيبك الأعظم، إذ قال لك رسول الله ﷺ، بل إذا قال الله تعالى لك: إن المعاصي خطر على دنياك وآخرتك، خطر عليك في الحال، وخطر عليك في الاستقبال، أفلا تصدق هذا الطبيب؟ أفلا تقلع عما أنت فيه من إضاعة حق الله، ومن التقصير في جنب الله، ومن إضاعة حقوق الناس؟ هذا هو الذي ينبغي أن يستحضره الإنسان: الندم، الاحتراق، التحسر على ما مضى منك، هذا هو حقيقة الندم.

وقد قال بعض الصالحين: حقيقة الندم أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، حتى تظن أن لا قرار لك، وتضيق عليك نفسك، كما وصف الله تعالى نفسية أولئك التائبين في سورة (التوبة)، التي سميت السورة بوصفهم: سورة (التوبة)، قال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾ على سعتها كأن الدنيا أصبحت كأنها أضيق من حلقة خاتم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨] فوقفوا على بابه مستغفرين تائبين نادمين.

هذه هي نفسية التائب الحقيقي.

ثم يأتي الركن الثاني وهو:

العزم المصمم، أن يعزم الإنسان الذي ابتلي بالمعصية، وكل الناس مبتلون بالمعاصي، كما قال النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[(١)]. لا يخلو أحد من الخطأ، ولا يخلو من الذنب، لأن الله تعالى خلقه

(١) رواه الترمذي، وابن ماجة، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٨٢٠، الحديث ١٩٢٧).

هكذا، لم يخلقه ملكاً مطهراً، ولم يجعله نبياً معصوماً، فسيدنا آدم عليه السلام نفسه أخطأ، فلا عجب أن يخطىء أبناؤه.

وهنا يأتي العزم على ترك الذنب، على اجتناب المعصية، على أن يبدل حياته، ويستبدل بصفحته صفحة جديدة، الصحائف التي سودتها المعاصي، يريد أن يملأها بأعمال صالحة، فيترك ويقلع عن الذنب، ويبدأ هذا بعزم... عزم جازم... عزم أكيد... عزم مصمم... إرادة قوية: ألا يعود إلى المعصية كما لا يعود اللبن إلى الضرع، هكذا يقول العلماء، هل إذا خرج اللبن من ضرع الناقة، أو البقرة، أو الشاة، يمكن أن تعيده إليها؟ وهكذا ينبغي أن يكون عزمه ساعة التوبة: طلاق بات بينه وبين المعصية.

أمّا إذا ظل متردداً، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، يريد أن يتوب ولكنه يحن إلى المعصية، ما زال يشعر بحلاوة المعصية، وبلذائذ المغامرات الماضية والأيام الخالية، لا زال هناك نوع من التعلق بتلك الأيام السود، فهذه ليست توبة، التوبة عزم مصمم ألا يعود إلى المعصية أبداً.

ربما يعزم عزماً أكيداً ومصمماً، ولكن الإنسان ضعيف، يحدث بعد ذلك يضعف وتزل قدمه، لا يضر هذا في التوبة.

المهم ساعة التوبة أن يكون عنده هذا التصميم المؤكد، فإن ضعف بعد ذلك وأغرته نفسه، وغره شيطانه، وسقط في هوة المعصية، فلا بد من أن يستحدث توبة جديدة، وأن يقول ما قال أبوه وأمه حواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣] . وهكذا. كلما أحدث ذنباً سارع إلى التوبة والاستغفار والله غفور رحيم.

روى أبو هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن عبداً أصاب ذنباً فقال: يا رب إني أذنبت ذنباً فاغفره، فقال له ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً آخر ـ وربما قال: ثم اذنب ذنباً آخر ـ فقال: يا رب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفر لي، قال ربه:

علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً آخر ـ وربما قال: ثم أذنب ذنباً آخر ـ فقال: يا رب، إني إذنبت ذنباً فاغفره لي، قال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، فقال ربه: غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»(١).

فهو يسارع إلى التوبة، ولن يغلق الله بابه عنه، لقد قيل لسعيد بن المسيب عن ذلك فقال: في ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥] . قال: (الأواب) الرجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب؛ لأن هذه الصيغة... صيغة (اواب) تدل على الكثرة، أي: أنه كثير الأوبة إلى الله، فيمكن أن يعثر ثم ينهض، ويخطىء ثم يحاول التصويب وهكذا، فهو لا ييأس من روح الله، ولكن المهم كل الأهمية أن يكون عند التوبة عازماً ومصمماً على عدم العودة، هذا ركن ثان، ومهم، وضروري للتوبة النصوح.

الركن الثالث: أمر يتعلق بالجوارح، وهو أن يقلع بالفعل عن المعصية التي كان يقترفها من قبل، هذا الندم وذلك العزم لا بد من أن يكون لهما أثر، أثرهما هو الإقلاع عن المعصية، والبعد عنها، وكراهيتها، وكلما ذكرها سأل الله المغفرة، ورجاه الجنة، وخاف النار، هذا هو شأن الإنسان المؤمن التائب: أن يقلع بالفعل عن المعصية.

بل لا يكتفي بالإقلاع، ولكنه يعمل الصالحات في مقابل السيئات التي اقترفها، حتى يبدل الله سيئاته حسنات، وقد جاء في الحديث: «واتبع السيئة الحسنة تمحها»(٢)، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ... الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴾ [هود: ١١٤] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٨٢٠ ـ ٨٢١، الحديث ١٩٢٨).

(٢) رواه الترمذي وحسنه عن أبي ذر ومعاذ بن جبل، وأوله: «اتق الله حيثما كنت... وآخره: وخالق الناس بخلق حسن» ورواه أحمد (٥/ ١٢٣، ١٥٨، ١٧٧، ٢٣٦)=

وليحاول أن يمحو السيئات بأضدادها من الحسنات، إذا كان قد أكل مالاً من حرام، يحاول أن يتصدق بمال من حلال، إذا كان كثير الغيبة للناس... يذكرهم بسوء، يجعل لسانه يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ويذكر أهل الخير في كل مجلس بما يستحقون، إذا كان قد فعل معصية معينة يحاول أن يعمل طاعة بضدها، إذا كان يقرأ كتباً رديئة يحاول أن يقرأ كتباً دينية وكتباً صالحة، إذا كان ينشر الفاحشة يحاول أن ينشر الفضيلة، وهكذا يحاول أن يجدد إيمانه من جديد، القرآن الكريم يقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] ، دائماً تقترن التوبة بالإيمان والعمل الصالح.

لماذا قال: «تاب وآمن»؟ لأن المعاصي - وخصوصاً الكبائر - تخدش الإيمان، وتنال منه، على قدر المعصية وكبرها، وإذا تاب الإنسان يحاول أن يجدد إيمانه، وأن يبني هذا الإيمان من جديد، ولذلك جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[1]، أي: ليس مؤمناً الإيمان الحقيقي... الكامل... الصادق.

هذه الكبائر خدشت من إيمانه وجرحته، فهو لا بد أن يداوي هذه الجراح وهذه الكلوم بالتوبة وبالإيمان.

«آمن وعمل عملاً صالحاً» يعمل الأعمال الصالحات بعد أن كان يعمل الأعمال السيئات، فهذا هو الأمر الإيجابي، أن يبدأ فيعمل الأعمال الصالحة يملأ بها صحائفه من جديد.

= والدارمي (٢/ ٣٢٣) وهو من أحاديث الأربعين النووية، وأفاض ابن رجب في شرحه في الحديث الثامن عشر من (جامع العلوم والحكم).

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة، وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٦٥١، الحديث ١٣٩٩).

هذه هي التوبة النصوح: ندم، وعزم، وإقلاع.

إذا فعل ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى أهل لأن يتوب عليه، وأن يجعله من أهل محبته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، قال بعض الصالحين: سألت الله عدة سنين أمراً سهلاً ولم أره استجاب لي! فقال له بعضهم: وماذا سألته؟ قال: سألته أن يتوب عليّ... أن يرزقني توبة نصوحاً، قال: أتظن هذا الأمر سهلاً أو هيناً؟ أتدري ماذا تسأل الله؟ إنك تسأله أن يحبك، إنك تطلب محبة الله، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فأنت تطلب درجة من الدرجات العلى... منزلة من المنازل التي لا تتطاول إليها الأعناق: أن يحبك الله، وإذا أحبك الله كان سمعك الذي تسمع به، وبصرك الذي تبصر به(١).. أصبحت ربانياً.

التوبة: ندم، وعزم، وإقلاع، هذه أركان التوبة.

أما شروطها فهي: أن ترد المظالم إلى أهلها، والحقوق إلى أصحابها.

تنقسم الذنوب إلى أقسام: صغائر، وكبائر.

الصغائر تكفرها الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان(٢)، بل الصغائر يكفرها مجرد اجتناب الكبائر، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى قال: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» وهو الحديث الثامن والثلاثون من الأربعين النووية.

(٢) يومىء إلى الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد تقدم ذكره في ص ٢٧.

كَرِيمًا﴿٣١﴾ [النساء: ١٣] ، أما الكبائر فلا تكفرها إلاّ التوبة.

ولكن الكبائر نوعان: حقوق لله، وحقوق للعباد.

هناك حقوق لله عليك تتعلق بترك المأمورات، مثل: أن تكون قد تركت الصلاة، أو تكون قد تركت الصيام، أو نحو ذلك، وهناك حقوق لله تتعلق: بفعل المحظورات، إذا تركت المحظورات تائباً إلى الله، فقد ابيضت صفحتك، أما ترك المأمورات ففيه كلام وكلام، السنوات التي مرت من عمرك دون أن تصلي، أو دون أن تصوم، ماذا تصنع فيها؟.

هنالك اختلف العلماء: هل يؤدي كل ما فاته، ولو كانت عشرات السنين؟ وكيف يستطيع؟ وهناك رأي يقول: إن ما فات قد انتهى، ولا أمل في أن يقضي ما فات.

معركة جدلية بين المذاهب المختلفة في قضاء الفوائت من الصلاة والصيام، ولعل الرأي الذي أرجحه، هو الرأي الذي يقول: إذا كان قد مضت عليه سنوات وسنوات، فالأولى أن يكثر من الطاعات ومن النوافل، ويحرص بقية عمره على أداء الفرائض على أكمل وجه، ويستغفر الله لما مضى، لعل هذا هو الأولى وخصوصاً في قضاء الصلوات.

وأما حقوق العباد فهي المشكلة، كيف تتوب وفي رقبتك حقوق للعباد؟ ولا يمكن أن تقبل التوبة والعباد يطالبونك بحقوقهم، وخصوصاً الحقوق المالية، ومنها حق الزكاة؛ لأن الزكاة حق لله وحق للفئات التي جعلها الله أهلاً لها، من الفقراء والمساكين والغارمين وأبناء السبيل.

لكي تصح توبتك، لا بد أن تحسب ما مضى من السنين من زكاة لم تؤدها، امسك قلماً ودفتراً، أو هات آلة من الآلات الحاسبة، واحسب أموالك بالتقريب، كم عليك فيما مضى من السنين؟.

هل صحت توبتك فتخرج ما عليك أياً كان المبلغ؟ أم أن الدنيا تصبح أكبر

عندك من الآخرة؟ فإذا وجدت المبلغ كبيراً تركت التوبة، إذا كان المال أعز عندك من الجنة، فافعل ذلك، وإذا كانت الجنة أعز وأغلى، فاخرج من مالك ما وجب عليك ولو عشت فقيراً.

حقوق الناس: إذا كنت تعرف أصحاب هذه الحقوق فردّ إليهم حقوقهم، وإذا كانوا قد ماتوا فردّ إلى ورثتهم.

الحقوق المالية في الإسلام: لا تسقط بالتقادم، لا تسقط بمضي السنين، ليس بعد عشر سنين، ولا عشرين، ولا ثلاثين، تقول: هذا انتهى، لا، سيظل في رقبتك، ابحث عن أصحابه، فإذا أعياك أمرهم ولم تعرفهم، أو كانوا غير محصورين، كالتاجر الذي يغش، أو يبيع ويطفف، أو... أو... إلخ، ظلم ألوف الناس في عمره، ماذا يصنع في هذا؟.

إنه يحسب هذه المظالم بالتقريب، ويتصدق بذلك عن أصحابها لا يتصدق عن نفسه؛ لأنه ليس هو مالك المال الحرام، هذا المال الحرام ملك أهله وأصحابه، ولكن يتصدق عنهم، كما فعل ابن مسعود رضي الله عنه، حيث اشترى جارية من رجل، ودخل يزن له ـ وكانت النقود الفضية توزن في ذلك الوقت ـ فلما خرج بحث عن الرجل فلم يجده، ونادى: يا صاحب الجارية... يا رجل، وظل يبحث عنه سنين حتى يئس منه، ثم قال: اللهم إني أتصدق بثمن الجارية عن هذا الرجل، فإن رضي يوم القيامة فله أجر هذه الصدقة، وإن لم يرض فأجرها لي، وليأخذ من حسناتي بقدر ماله، هكذا فعل ابن مسعود رضي الله عنه.

يوم القيامة يتعامل الناس بعملة واحدة، ليس هناك درهم ولا دينار، ولا ريال، ولا دولار، العملة الوحيدة في ذلك اليوم هي الحسنات والسيئات، ولا بد لكل إنسان أن يأخذ حقه، لا تسامح ولا تنازل، فهو يوم الأنانية والفردية: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]. كل امرىء يقول: نفسي نفسي، لا يتنازل عن الحسنة فلعل ميزانه ينقصها.

ولذلك فكل واحد يطلب حقه، ومم يأخذ الحق ولا نقود، ولا فلوس، إلاّ هذه الحسنات والسيئات؟ فإما أن يأخذوا من حسناتك حتى يستوفوا حقوقهم، وإما أن يحملوك من سيئاتهم إذا عجزت حسناتك عن الوفاء بالحقوق.

لا بد من رد الحقوق إلى أهلها، جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلاّ الدين»[١]. الشهيد الذي يقتل في سبيل الله تكفر عنه خطاياه، الشهادة مكفرة للذنوب، الشهادة في سبيل الله أعلى ما يتمناه المؤمنون ويحرصون عليه، ولكنها تكفر الذنوب إلاّ شيئاً واحداً، كما قال النبي ﷺ: «إلاّ الدين»، وفي الحديث: إن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر أن الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالله، أفضل الأعمال»، فقام رجل فقال: يا رسول الله: أرأيت أن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر» ثم قال رسول الله ﷺ: «كيف قلت؟» قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلاّ الدين، فإن جبريل قال لي ذلك»[٢]، جبريل استدرك على النبي ﷺ وصحح له: إن الشهادة في سبيل الله تكفر كل الذنوب وتمحوها إلاّ الديون.

حقوق العباد المالية هذه خطيرة. في غاية الخطورة، الحقوق التي للعباد ينبغي أن ترد.

الحقوق الأدبية يمكن للإنسان أن يعوضها بالاستغفار لهم، والثناء عليهم، والدعاء لهم، أما الحقوق المالية فإما أن يدفعها إليهم، أو إلى ورثتهم، أو يتصدق بمثلها[٣]، أو يستحلهم.

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/٣٩٨، الحديث ٧٣١).

(٢) رواه مسلم وغيره عن قتادة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٣٩٩، الحديث ٧٣٢).

(٣) إذا مات أصحابها ولا وارث لهم، أو بحث عنهم فلم يجدهم.

ما معنى: يستحلهم؟ يذهب ويقول له: يا أبا فلان، في أيام طيشي وغروري وبعدي عن الله أخذت منك شيئاً، أو نلت منك كذا، وأنا أرجو أن تسامحني، فإذا سامحه فقد تنازل عن حقه، وله أجره عند الله، وإلاّ فلا بد من الوفاء، وإن عجز وصدقت نيته وتوبته، فإن الله أهل يرضى عنه خصومه يوم القيامة.

التوبة ليست كلاماً يقال.

هناك ذنوب لها أهمية خاصة: الذين يذنبون ولا تموت معهم ذنوبهم، يا لخسران هؤلاء، طوبى لمن إذا مات، ماتت معه ذنوبه ومعاصيه، وويل لمن يموت وتظل ذنوبه مستمرة.

انظروا إلى أصحاب الأفلام والمسلسلات والأغاني والكتب المليئة بالكفريات والضلالات، مات أصحابها ولكنها لا تزال تعمل في إفساد الناس، أفراداً وجماعات، هذا هو الخطر، ولذلك على هؤلاء أن يتوبوا مسارعين مبادرين، قبل أن يصبح الأمر خطيراً.

كم يصعب عليّ أولئك الذين ينتسبون إلى الفن، من الرجال والنساء، ثم تدركهم الصحوة في يوم من الأيام فيتوبوا إلى الله، ما موقفهم وهم ينظرون في التلفازات وفي السينمات أنفسهم شبه عرايا، وفي المجون والخلاعة والفجور، ماذا يفعلون؟.

كيف تكون هذه التوبة؟ إنه لا بد لها من عمل صالح مقابل هذه الأعمال السيئة.

الذي أضل الناس بكفره... بقلمه... بكتبه... بمقالاته، هذا إذا أراد أن يتوب، يتوب ولكن فكره المضلل المفسد المدمر ما زال يعمل عمله، ومن هنا لا يكفي أن يتوب حتى يخطىء نفسه، ويتبرأ من تلك الكتب، ويحاول منعها ما استطاع، كما فعل بعض الفنانين والفنانات: حاولوا أن يشتروا الأشرطة التي فيها الفساد القديم، وأحياناً لا يستطيعون ذلك؛ لأنها بيعت طيلة العمر، ولم تعد

ملك أيديهم، فيعجزون عن عمل شيء، والله أعلم بمدى صدقهم ومدى عجزهم، وهو أهل المغفرة.

الله تعالى قال في توبة الكاتمين للعلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠] . لا تقبل توبتهم ما لم يصلحوا ويبينوا، أما أن يقول أحدهم: تبت، ولا يزال ما فات كما فات، فهذه ليست توبة.

لا بد من إصلاح وتبيين، يبين فيه ضلال نفسه أمام الناس، ويعتذر على الملأ، وقد فعل ذلك بعض الكتاب الشجعان.

التوبة ليست كلمة تقال، ولا دعوى تدعى، التوبة عمل عظيم، تغيير في حياة الإنسان، تغيير يتغير كل شيء فيه: فكره، وقلبه، وعمله، وسلوكه، وحياته كلها، هذه هي التوبة.

ولذلك علامة في التائب: أن تجده قد غير أصحابه... (الشلة) القديمة... إخوان السوء... شياطين الإنس، الذين يشوشون عليه عزمه، ويصدونه عن سبيل الله، ويزينون له المعاصي.

لا بد له أن يغير هؤلاء، ويغير مجلسه، ويغير بيئته، حتى يسلك في عداد التائبين.

لقد قال الله تعالى عن التائبين: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢] .

نسأل الله تعالى أن يتوب علينا توبة نصوحاً. وأن يجعلنا من التائبين المتطهرين، إنه عليم قدير وصلى الله على سيدنا محمد، وادعو ربكم يستجب لكم.

* * *

● **الخطبة الثانية:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لا زالت إسرائيل الدولة المغتصبة المعتدية، تعبث بحقوقنا ومقدساتنا، رغم ما يدعى إليه مما يسمى (السلام)، كيف يكون السلام وإسرائيل لا زالت متشبثة بمواقفها؟! لار زالت تشن عدوانها في جنوب لبنان، وما زالت متشبثة بالجولان، ولا زالت تعمل عملها في أبناء الحجارة، وفي الضفة الغربية وغزة، لا زالت تفعل الأفاعيل، تسفك الدماء، وتكسر العظام، وتهتك الحرمات، لا زالت إسرائيل تفعل هذا.

وآخر ما فعلت هو الاعتداء على المحكمة الشرعية الإسلامية في القدس، والاستيلاء على الوثائق المهمة، التي تثبت ممتلكات المسلمين، وممتلكات الأوقاف الإسلامية، الممتلكات العامة، والممتلكات الخاصة، تريد ألا يبقى عند المسلمين أي شيء يدل على ملكيتهم، ومع هذا ما زلنا نلهث وراء السلام.

هذه إسرائيل، إسرائيل لا يمكن أن تؤدب إلاّ بالقوة، وفلسطين لا يمكن أن ترد إلاّ بالقوة، إلاّ بالجهاد، هذا ما أعتقده، هؤلاء المعتدون الظالمون لا يمكن أن يسكتهم إلاّ منطق القوة، لا قوة المنطق.

الله سبحانه وتعالى ذكر هؤلاء الناس في كتابه في مئات الآيات، لم يحدثنا عن فارس والروم إلاّ في آيات معدودات، أما بنو إسرائيل واليهود، فقد حدثنا عنهم في سور وسور، وآيات وآيات، لنكون على بصيرة من أمرهم، وعلى بينة من مواقفهم، حتى نعد أنفسنا للقائهم في يوم من الأيام.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينير بصائر هذه الأمة، وأن يهيىء لها من أمرها رشداً، وأن يجعل يومها خيراً من أمسها، وأن يجعل غدها خيراً من يومها، وأن يحسن عاقبتها في الأمور كلها.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم رد عنا كيدهم، وفل

حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المسلمين، اللهم اجمع كلمة هذه الأمة على الهدى، وقلوبها على التقى، ونياتها على الجهاد في سبيلك، وعزائمها على عمل الخير، وخير العمل: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].